الحركية التاريخية لولاية أهل البيت (عليهم السلام) دراسة فی دور الإمام الصادق (ع)

پدیدآورده (ها) : علی صالح،نبیل
میان رشته ای :: المنهاج :: شتاء 1429 - العدد 48
از 316 تا 332
آدرس ثابت : http://www.noormags.ir/view/fa/articlepage/712832

دانلود شده توسط : رسول جعفریان
تاریخ دانلود : 14/04/1395

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) جهت ارائهٔ مجلات عرضه شده در پایگاه،مجوز لازم را از صاحبان مجلات، دریافت نموده است، بر این اساس همه حقوق مادی برآمده از ورود اطلاعات مقالات، مجلات و تألیفات موجود در پایگاه، متعلق به "مرکز نور" می باشد. بنابر این، هرگونه نشر و عرضه مقالات در قالب نوشتار و تصویر به صورت کاغذی و مانند آن، یا به صورت دیجیتالی که حاصل و بر گرفته از این پایگاه باشد، نیازمند کسب مجوز لازم، از صاحبان مجلات و مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) می باشد و تخلف از آن موجب پیگرد قانونی است. به منظور کسب اطلاعات بیشتر به صفحه قوانین و مقررات استفاده از پایگاه مجلات تخصصی نور مراجعه فرمائید.

پایگاه مجلات تخصصی نور

www.noormags.ir

الحركية التاريخية لولاية أهل البيت عليهم السلام

دراسة في دور الإمام الصادق عليه السلام

أ. نبيل علي صالح(*)

مقدمة البحث

يبدو لي البحث التاريخي ـ وبخاصة البحث في تاريخ أمة كأُمتنا لم يتبق لها من أمجادها التليدة إلا ما سطرته كتب التاريخ التي أصبحنا نتغنى بها على مذبح حقائق العصر الراهن ـ موضوعاً شديد الحساسية، وربما يكون سيفاً ذي حدين.. لأن أي حديث عن فكرة تاريخية أو شخص عاش في الزمن الماضي، فهذا يعني ـ في الواقع العملي- أنك تتحدث عن سيرة قرون من الزمن، فيها تفاصيل كثيرة، وحوادث متشعبة ومتشابكة ورواة مختلفون يعون الخبر عقل رواية لا عقل رعاية..

وعلى وجه العموم أقول: إننا عندما نتناول التاريخ فإننا نحاول اختصاره في مشاهد أو لوحات جمالية محدودة خالية من أي تشويه أو تعقيد، نستطيع أن نفهمها ونصنفها على أنها «خير محض» أو «شر محض». وهذا ما يتجلى عندما نتناول شخصية تاريخية ما، فنحن نميل لأن نقول إنه كان رجلاً عظيماً أو رجلاً ظالماً مستبداً، فالحجاج جبار ظالم، وهارون الرشيد عظيم عند بعضنا، ومجرم عند الآخر، أما صلاح الدين فهو أعظم الناس، وإذا أحب البعض أحد الأئمة فلا يمكن؛ نقده لأن النقد معناه هنا نقله من ضفة الخير إلى ضفة الشر، وإذا كره البعض عالما فلا يمكن مدحه للسبب نفسه. التاريخ لدينا أبيض وأسود فقط لا غير.

بناءً على ذلك فإنه من غير الممكن ـ علمياً وموضوعياً ـ اعتبار التاريخ (أي تاريخ) فكرة نهائية مغلقة أو معرفة مقدسة منتهية لا تشوبها شائبة، ولا تمسها حركة التفكير، ولا تداخلها عوامل الزمان والمكان.. فالتاريخ عموماً ـ وعلى الأخص منه تاريخنا العربي والإسلامي ـ هو حركة للإنسان في محيطه خلال الزمان.. إنه سجل

(*) باحث وكاتب من سورية.

www.noormags.ir

مبادلات البشر ومكتسباتهم فيما بينهم سلماً أم حرباً، اجتماعاً أم سياسةً، ديناً أم دنياً. ويظهر التاريخ مليئاً بالأفعال والحوادث والمعطيات والحركات التي يقترب قليلها من الالتزام بالنص المقدس، ويبتعد كثيرها عن مثل ذلك الالتزام. ولا تحتاج مثل هذه الفكرة إلى جهد كبير لإثباتها؛ لأن أية نظرة سريعة على تاريخ المسلمين سواء أكانوا خلفاء أم أُمراء، أو مجتمعات وأفراداً من عامة الناس تنقض فكرة «قداسة التاريخ» من أساسها وتجعلها مثيرة للسخرية. والإبداع الحقيقي والإثارة الحقيقية التي يقدمها تاريخ الحضارة العربية والإسلامية، تأتي بالضبط من فكرة عدم قداسته وجمعه للأضداد بشكل تعايشي خلاق. أنّ التاريخ بالنسبة لنا غير موجود؛ لأنه مضى زمن وقوعه وحدوثه، وما لدينا فقط ما دوّنه قراء لهذا التاريخ، قراء من البشر لديهم أهواؤهم وميولهم وأخطاؤهم وحماقاتهم وعقدهم النفسية ومصالحهم، كما أن لهم عظمتهم أيضاً.

نفهم الأحداث من خلال عيونهم، رغم أنهم عاشوا في زمن محروم من وسائل الاتصالات الحديث فكيف نفهم التاريخ ثم نقدسه ونستلهم أمجادنا منه، وهو ضبابي فيه الكثير من الأخطاء والروايات؟

مركز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

انطلاقاً مما تقدم تأتي دراسة وتحليل بعض شخصيات التاريخ الإسلامي - الذين عاشوا في الماضي وكانت لهم أفعالهم وسلوكياتهم التي مارسوها وعاداتهم التي كسبوها وأفكارهم التي أنتجوها وأبدعوها- لتلقي الضوء على بعض ما قدموه من فكر وعمل للإنسانية جمعاء، ولتطلع الأجيال اللاحقة على كثير من تلك النتاجات التي لا يزال قسم كبير منها صالحاً للحياة في حجم الحاضر والمستقبل، باعتبار أن الفكرة الخلاقة والمبدعة التي تحرض أجمل ما في الإنسان من قيم الجمال والمحبة والعمل والخير، لا زمن لفعاليتها وصلاحيتها، ولا تاريخ لوجودها سوى تاريخها الأولي الذي انطلقت منه ابتداءً.

ضمن هذا السياق نحاول هنا تقديم فكرة بسيطة وسريعة عن شخصية إسلامية عظيمة في إبداعها وأخلاقها وتسامحها وعملها من أجل رفعة الإسلام

www.noormags.ir

والإنسانية.. إنه الإمام جعفر الصادق عليه السلام الذي كان بحق أمة في رجل.. وسنركز الحديث في دراستنا هذه عن مساهمته الفعالة في النهوض بمذهب أهل البيت عليهم السلام، وإعطائه طابعاً مدرسياً بالمعنى المعرفي العلمي..

أولاً ـ من المعالم الحيوية للحالة الانتمائية الشيعية

يعتبر الإمام الصادق عليه السلام المؤسس العملي لمذهب أهل البيت عليهم السلام الذي اتسع نطاقه وامتدت معالمه بعد أن توافرت في ذلك العصر المضطرب -الذي عاش فيه الامام الصادق- شروط البناء الفكري والعلمي، وعوامل النهوض النظرية والسلوكية اللازمة للنمو ولامتداد حركة علمية ومعرفية على مستوى الإسلام والمسلمين، ساهمت في إيضاح أُطروحة (ومبادئ ومعالم) رسالة الإسلام من موقع مدرسة ونهج أهل البيت عليهم السلام بما تحمله من طموحات كبيرة في استمرارية الإسلام الأصيل المنفتح والمتسامح، ولذلك كان من غير المنطقي اعتبار التشيع والولاء لأهل البيت مجرد ظاهرة طارئة على الوجود الإسلامي، وإغفال كل هذا الكم الهائل من النصوص والأحاديث والتواريخ التي حملت دلالات حية وواضحة في رسم الإطار الفكري والعقيدي الممنهج لحركة التشيع كونها امتداداً طبيعياً وتجسيداً عملياً لخط (وأُطروحة) الإمام في مسار الحركة القيادية الرسالية للإسلام المحمدي الأصيل، وتوضيح الوصايا المدونة في كتب التراجم والسير من جملة معطيات عقيدية حيوية عامة تؤسس للحالة الإسلامية الشيعية.. وهنا نستعرض مثالين عن هذا التحديد العملي:

مثال أول ـ التوحيد الإلهي

وهو العنصر الأساسي في البنية المفاهيمية والروحية الإسلامية التي تحدد مجموعة الصيغ والمفاهيم العقائدية النظرية عن الكون والوجود والإنسان، وتنطلق من خلالها كل المعالم الحركية الحضارية للصيغة الإسلامية في واقع الحياة والإنسان.. إنه المحور (والمركز) الذي تتمحور حوله وتتقوم به سائر التعاليم والأحكام.. لاحظ قوله عليه السلام في التوحيد، (وهي رسالة بعث بها إلى أحد أصحابه)(1): «إن المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عزّ وجلّ، فانف عن الله تعالى

www.noormags.ir

البطلان، والتشبيه فلا نفي ولا تشبيه، هو الله الثابت الموجود تعالى الله عما يصفه الواصفون، ولا تعدوا القرآن فتضلوا بعد التبيان..».

مثال ثاني ـ النبوة

تحتاج البشرية في حركتها المستمرة إلى ترشيد إلهي، ووعي كوني لإعطاء مسيرتها الحضارية ثباتاً ومضموناً أصيلاً يحدد حركتها المنفلتة، ويضبط اتجاهاتها في المنطلق والمنهج والهدف.

لذلك انطلقت حركة النبوة منذ فجر التاريخ البشري لتمارس عملية ترشيد ورعاية المسيرة الإنسانية في ضوء المناهج والمعطيات والربانية، من خلال ارتباطها بالوعي التوحيدي عند الإنسان، وبالمسؤولية الأخلاقية لحمل رسالة الدعوة، وبخط التطور النوعي والكمي لحركة الصيرورة البشرية في التاريخ..

روى سماعة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أخبرني عن الإسلام والإيمان أهما مختلفان؟ فقال: «إن الإيمان يشارك الإسلام، والإسلام لا يشارك الإيمان». فقلت: فصفهما لي، فقال: «الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله صلى الله عليه وآله...»[٢].

ثانياً ـ المعنى الواقعي والمضمون الحقيقي للولاء الانتمائي

يعكس الانتماء الطبيعي إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام ـ في عمقه وأصالته ـ الصورة النموذجية الأرفع لنهج (وخط) الإسلام نفسه؛ لأنه انتماء يقدم السلوك الإسلامي في أبهى صوره، وأجلى عناوينه، وأنقى تلاوينه من خلال نموذج الولاء الحسن والتأسي الواعي (نموذج الأسوة الحسنة) بأئمة أهل البيت عليهم السلام، الذين جسدوا بسلوكهم التطبيق الحي لقيم رسالة الإسلام في كل مضامينها ومستوياتها الروحية والعملية.

لقد حدد الإمام الصادق عليه السلام القيمة الحقيقية لحالة الانتماء عبر توفير مكوناتها الواقعية التي تهدف إلى بناء الكتلة الإسلامية الشيعية المؤمنة، والملتزمة بنهج أهل البيت في خط الولاء للإسلام المبني على قاعدة الانفتاح على الله تعالى في كل ما يتصل بحركة الإنسان في الحياة بما يجعل (هذا الإنسان) قادراً على استيعاب كل المواقع والمساحات المتحركة في كل الحياة الفكرية والاجتماعية.

www.noormags.ir

١ـ يقول الإمام الصادقعليه السلام في وصيته التاريخية[٣] لعبد الله بن جندب[٤] والتي حملت خلاصة تجاربه، وجواهر حكمته: «.. يا بن جندب، بلّغ معاشر شيعتنا، وقل لهم: لا تذهبنّ بكم المذاهب، فوالله لا تنال ولايتنا إلا بالورع والاجتهاد في الدنيا، ومواساة الأخوان في الله، وليس من شيعتنا من يظلم الناس.. يا بن جندب، إنما شيعتنا يعرفون بخصال شتى بالسخاء والبذل للإخوان، وبأن يصلوا الخمسين ليلاً ونهاراً، شيعتنا لا يهرون هرير الكلب، ولا يطعمون طعام الغريب، ولا يجاورون لنا عدواً ولا يسألون لنا مبغضاً ولو ماتوا جوعاً، شيعتنا لا يأكلون الجري[٥]، ولا يمسحون على الخفين، ويحافظون على الزوال، ولا يشربون مسكراً...»[٦].

٢ ـ ويقولعليه السلام في وصية أخرى لشيعته: «إن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس، قيل: هذا جعفري، فيسرني ذلك، ويدخل عليَّ منه السرور، وقيل: هذ أدب جعفر وإذا كان على غير ذلك، دخل علي بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر..»[٧].

٣ ـ وأوصىعليه السلام شباب شيعته: «لست أحب أن أرى الشاب منكم إلا غادياً في حالتين: إما عالماً، أو متعلماً، فإن لم يفعل فرط، فإن فرط ضيع، وإن ضيع أثم..»[٨].

٤ ـ ومن وصاياه الرائعة والرفيعة لأصحابه وشيعته أنه قال لهم: «.. اتقوا الله، وأحسنوا الركوع والسجود، وكونوا أطوع عباد الله، فإنكم لن تنالوا ولايتنا إلا بالورع، ولن تنالوا ما عند الله إلا بالعمل...»[٩].

بعد دراسة وتحليل هذه النصوص الهامة، نستطيع تحديد المعنى الواقعي والمضمون الحقيقي للولاء والتشيع من خلال مقومات النهوض (والارتقاء) بالمستوى الإنتمائي وهي:

المقوم الأول: الاستقامة في السلوك وتطبيق تعاليم أئمة أهل البيتعليهم السلام

تعبّر مسألة الولاء لأهل البيتعليهم السلام (وضرورة تطبيق تعاليمهم في الفكر والممارسة) عن تجسيد حي لعمق التفاعل والتواصل مع رسالة الإسلام، التي ذاب فيها الأئمةعليهم السلام وكانوا بحق امتداداً نوعياً للنبوة من حيث قوة ارتباطهم بها على

www.noormags.ir

مستوى العقيدة والقيم والمفاهيم، وعمق تفاعلهم المتحرك مع مضامينها الحية والهادفة.. وقد أثبتت ممارسة الأئمةعليهم السلام لمسؤولية العمل والدعوة ـ وتحملهم الكبير لمشقات الحركة والنشاط التبليغي العلمي في تمثلهم الواقعي لكل المضامين الإسلامية الأصيلة ـ خطأ النظرية القائلة بالفصل بين الانتماء لأهل البيت وبين الانتماء لرسالة الإسلام.. كما وأكدت على أن الولاء لأهل البيتعليهم السلام مرتكز أساساً على قاعدة الانتماء للإسلام، يستمد منه طاقته، وحركته، وقدرته على مواصلة المسيرة الإنسانية المتصاعدة.

والواضح أنّ تصدي الأئمةعليهم السلام لمهام البناء الروحي والفكري للأُمّة، وممارستهم للمعارضة الإيجابية الفاعلة، وتأسيسهم لمدارس العلم والمعرفة، وقيامهم بمهام صيانة الرسالة، وحماية ما تبقى من التجربة الصحيحة من السقوط والانحراف..

أقول: إن ذلك كله، يدل على أن الولاء لهم كان يشكل ضمانة عملية للواقع الاسلامي الفكري والروحي كله. وهذا الأمر لم يكن ليحدث إطلاقاً (أو حتى يأخذ دوره العام) لولا عمق الصلة العاطفية الفكرية بين الإسلام كدين وحالة في الفكر والإحساس والممارسة، وبين الإنتماء لأهل البيت كخط إسلامي في وعي أهل بيت النبوةعليهم السلام.

من هنا نعتبر أن التفريط (أو زعزعة الإيمان) بخط الولاء لأهل البيت ـ كمقوم إيماني ومرتكز رسالي انتمائي– قد يحدث اضطراباً في مجمل البنية الفكرية التصورية الإيمانية، ويساهم في تفريغ محتوى الإسلام ومضمونه الداخلي من بعض عناصر قوته وسر حيويته ونضارته، ويحرف مسيرته عن طريقها الطبيعية في خط الدعوة والرسالة.. ولذلك نقول (ونحن لا نتعصب في هذا القول): إن خط أهل البيت هو وليد طبيعي كامل للإسلام والقرآن.. نشأ وترعرع بين أحضانه، وعاش بين جوانحه وهو ليس أبداً (كما يصوره البعض) حالة طارئة على الوجود الإسلامي في فكره ومعارفه وحركته.

المقوم الثاني: البناء العقائدي لحركية الوعي الإسلامي، وذلك عبر:

www.noormags.ir

١ـ تأصيل البعد العقائدي:

وذلك من خلال تدعيم المضمون الحقيقي للولاء بمعطيات (عقيدة الإمامة) من حيث طبيعة المفاهيم والانفعالات والممارسات المختلفة.. من هنا كان الالتزام بالعقيدة الإمامية ـ بما تمثله من فعل إيمان، وتعبير أصيل عن نوعية انتمائية وعمق عقائدي- تجسيداً حياً لواقع موضوعي صادق في نفس الإنسان يقوم على مجموعة من التصورات (المنظومة الفكرية) بمضامينها الأخلاقية والسياسية والفقهية.. وهو (أي الولاء) لو لم يكن على هذا النحو، فإنه سرعان ما كان سيتحول إلى مجرد حالة شعورية غير منضبطة، وعواطف فارغة لا قيمة لها، ومجرد انفعال شكلي، لا يختزن في داخله الدلالات الحقيقية والمعاني الأصلية والطموحات الكبيرة التي تمثل التعبير الواقعي للحالة الولائية الصادقة.

٢ ـ تأصيل البعد الروحي للأئمة (عليهم السلام)

وذلك من خلال أنهم الصورة المشرقة لجملة القيم والمبادئ والمكارم الأخلاقية الإسلامية، بما يحملونه من كمالات ذاتية فكرية وإيمانية مميزة.. تجب معرفتها، والتمسك بها، والتأسي بسبلها الواثقة والمستنيرة، والقيام بمسؤوليات الولاء العاطفي المتوازن، والذائب كلياً في داخل ذواتهم الفكرية والروحية.. كحالة نفسية تختزن في داخلها نفحات العشق الطاهر، والحب الصافي، والوهج الإيماني الساطع لهم (عليهم السلام).

إنّ محبة الأئمة ـ كما أكد الصادق (عليه السلام) ـ لا تكون عملية ناجحة ومكتملة إلا إذا ارتقى الحب إلى مستوى من الوعي الانتمائي الفاعل والطاقة الحرارية المتأججة.. وهذا يعني أن (الحب) تحسه مضموناً حقيقياً، وتمثل له (على الأرض) وجوداً فاعلاً قوياً.

٣ ـ تأصيل البعد الاجتماعي

وذلك من خلال تعزيز الرابطة القلبية والوجدانية بالقيادة الإسلامية للأئمة (عليهم السلام) كأطروحة عملية ذات معطيات وبنى اجتماعية، يراد لها أن تواصل بناء الأمة على أساس الإسلام، وإنجاز التغييرات الكبيرة التي بدأ برسم معالمها الأساسية

www.noormags.ir

الرسول صلى الله عليه وآله.

ثالثاً ـ دعوة الصادق عليه السلام إلى صنع شخصية «إنسان الله» (الإنسان الكامل)

يتعلق البناء التربوي الإسلامي بالتخطيط (النظري والعملي) الخاص بعملية رسم منهج أخلاقي شامل ومتكامل للبشرية جمعاء على طريق تكاملها الروحي والمادي.

وتسعى النظرية الإسلامية ـ في هذا المجال ـ إلى بناء الإنسان النوذجي الأسمى والأعلى. أي بناء الإنسان الكامل، بحكم كونه سيتحول ـ على طريق حركته الحياتية ـ إلى «إنسان ـ نموذج» مثال وقدوة.. لكن الإسلام ـ الذي جاء لتحقيق هذا الهدف التربوي الكبير ـ أراد للإنسان أن يجعل من هدف التكامل الإلهي (بحجمه الكمي وبعده النوعي) هاجسة الأساسي في الحياة.. أي أن يصبح أمر تحقيق ذلك الهدف جزءاً من وجوده وفكره، وعواطفه، لينعكس إيجاباً على ممارسته وسلوكه مع الله تعالى ومع نفسه والآخرين في مختلف المجالات الاجتماعية والسياسية الحضارية.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفاً كأنه مشرف على النار، ويرجوه رجاء كأنه من أهل الجنة»(١٠).. لكن الإنسان النموذجي الكامل الذي يراد للدين الإسلامي أن يربيه في ضوء تعليماته والتزاماته الروحية والمعنوية والاجتماعية، لا بد له من أجواء ومناخات خاصة.. فما هي هذه الأجواء الخاصة؟ ومن هو هذا الإنسان الإلهي؟ وما هي الآثار التي ستترتب على الالتزام بقيمه ومبادئه؟

أولاً ـ معنى الإنسان الإلهي الكامل

في البداية يمكن أن نقول عن إنسان الله: بأنه الإنسان الذي يختزن في داخله صفات وقيم الله تعالى، ويعمل على تطبيقها في سلوكه اليومي مع الآخرين.. ينفتح بعقله وإحساسه وحركة حياته على الله، لا انفتاح التقليد الذي يتحول الله فيه ـ لدى هذا الإنسان ـ إلى مجرد شيء من الأشياء التي يخافها، ولكن أن يكون الله ـ في عقله وقلبه وإحساسه ـ النور الذي يعطي إشراقة المطلق، فيستطيع هذا الإنسان أن يتجاوز الكثير من الحدود إذا لم يملك أن يتجاوزها كلها بفعل وجوده المادي.

يقول الصادق عليه السلام: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فهو ممن

www.noormags.ir

كمل إيمانه»[١١].. إنه الإنسان الذي يتحاور مع ذاته الداخلية.. يعرف خفاياها ويفهم حاجاتها.. يتحاور مع قلبه وعاطفته، وتتحاور عاطفته مع متطلباته وغاياته..يقول عليه السلام: «من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا»[١٢].

وهنا نتساءل: هل يكفي التطهير الأخلاقي والروحي للإنسان من أجل الوصول إلى طريق الكمال الإلهي وصنع إنسان القيمة؟

إنّ قيم الطهر والعفاف والنقاء الأخلاقي شروط لبناء إنسان الله، وليست شروطاً كافية في هذا المجال.. لأن الإنسان الطيب ـ ذي النية الصافية والسلوك الروحي المتوازن ـ قد لا يكون عالماً بأحوال مجتمعه، ودوائر واقعه المعرفية والثقافية والسياسية. بمعنى أنه قد يكون خارج إطار زمانه الحقيقي، ولايهتم إلا بشؤون وقضايا القرن الثالث أو الرابع الهجري. أي أنه يعيش ذهنية إنسان القرون الماضية، ولا يحيا ذهنية وتفكير ووعي الإنسان المعاصر. فهل نستطيع في ضوء ذلك: أن نقول أن هذا الشخص ـ بالرغم من أن العلم يقطر من قمة رأسه حتى أخمص قدميه (كما يقال) ـ مؤهل لأن يكون إنساناً إلهياً بكل معنى الكلمة؟..

من هنا أقول: إن الإنسان الإلهي النموذجي الذي يريد الإسلام بناءه في الواقع النفسي والسلوكي، هو إنسان قيم الله (والواقع). أي أنه الإنسان المثقف دينياً ودنيوياً المتوازن في وعيه وعلاقاته، وثقافته، في كل الحركة الاجتماعية العامة.. الإنسان الذي يعطي الحياة والفكر كل طاقته وجدته، ويحاول أن يعيش قلق الفكر وقلق الإنسان والحياة، من أجل أن يجعل الفكر شيئاً للإنسان بدل عن أن يكون شيئاً للغيب واللامرئيات. هو شخص يفهم لغة زمانه، ومعارف عصره، وقيم واقعه، ويواكب حياته المعاصرة، متعهداً وملتزماً بقضايا ومصائر إخوته في الإنسانية على مستوى عقله وحريته، وشعوره بالمسؤولية تجاه إنجازاته الحضارية والإنسانية.

من خلال ذلك نجد أن هناك تفاعلاً وتواصلاً مثمراً ممكناً بين قيم الله تصنع الإنسان الإلهي النموذج في مستوى حركته الداخلية، وبين طبيعة الواقع الذي يعيشه الإنسان في مستواه الخارجي. وذلك على أساس وجوب أن ندرس بدقة حركة الواقع الذي نريد أن نطلق فيه قيمنا ومفاهيمنا والتزاماتنا العملية لتكون دراسة (ووعي) الواقع أساسياً في تحريك القيمة وبناء «إنسان ـ الله». أي لكي تكون القيم في خدمة

www.noormags.ir

الواقع، وليس الواقع في خدمة القيم.. وبذلك ننجز ونبني الإنسان الإلهي (المثقف الديني) كضرورة حيوية وواقعية ذات أهمية قصوى، وحاجة ملحة في واقعنا المعاصر الذي نعايش فيه تحديات مصيرية على هذا الصعيد.

وحقيقة: نحن نحتاج إلى صنع هذه الظاهرة (ظاهرة المثقفين المتدينين) ليس المثقفون الذين يعيشون الأمية في عقلهم وسلوكهم، وعدم وعيهم للتجربة أو انفتاحهم عليها، وليس المثقفون الذين يعيشون ثقافة العلم أو ثقافة الحرف والكلمة فقط، لكنهم المثقفون الذين دخلوا ساحة التجربة الحياتية الإيمانية بعلمهم وتجربة الحياة بفكرهم؛ لأن الحياة كتاب كبير يمكن أن يقرأه (ويقرأ فيه) الأميّون وغيرهم.. إنها تعطيك التجربة والفكرة من خلال الواقع الملموس إذا كنت واعياً ومفكراً بتجربتك التي قد تعطيك فهماً للحياة من دون أن تقرأ كتاباً واحداً.

ومن خلال دعوتنا لإنجاز وبناء «إنسان ـ الله»، فإننا ندعو بالنتيجة إلى صنع «مجتمع النقد والمسؤولية والحرية» الذي يدرس واقعه وطموحاته وأهدافه وحاجاته وتحدياته المصيرية الكبرى التي تهدد أمنه واستقراره ووجوده؛ لأن المجتمع المسؤول هو مجتمع حر، وفي صلب حريته تكمن مسؤوليته أولاً وأخيراً عن إنجازاته وأعماله أمام الله تعالى.

وبناءً على ذلك يجب على الإنسان المتحرك على طريق الكمال الإلهي (وحيث لا تكتمل درجة كمالك الإلهي من دون حرية ومسؤولية حقيقية) أن يفكر ويتبصر، وأن يكون مسؤولاً عن تفكيره والتزاماته الحركية في الحياة.. وأن يفكر هو لنفسه، لا أن يترك الآخرين يتفكرون له من موقع حساباتهم الشخصية الضيقة.

إنّ المجتمع الذي لا يفكر ـ والتفكير قيمة إلهية عليا فيما هي الدعوة إلى الفكر المسؤول، وإعمال حركة العقل في ضروريات الأمن والاستقرار في المجتمع والأمّة ـ هو مجتمع غير عاقل، أعطى لعقله فسحه وإجازة، وتسلط الآخرين ـ نتيجة لذلك ـ على مقدراته وإمكاناته، وتحكموا بمصائره وحريته.

إذن، علينا جميعاً أن نعمل ـ أفراداً ومجتمعات ـ على تحمل المسؤولية الفكرية والعقلية والإيمانية، على صنع الإنسان المتوازن والحر الذي يعيش حريته التي أعطاه الله إياها بكل وعي وتخطيط، وذلك بإعطاء حياته مسؤولية أوسع، وقوة أكبر

www.noormags.ir

في سبيل خدمة الله، والإنسان، وخدمة متطلباته والتزماته ومستلزمات وجوده الروحية العليا. وذلك هو التحدي المقبل فهل نستجيب له؟! وما مدى وعينا وفهمنا لهذه الاستجابة؟!

ثانياً ـ آثار ونتائج العمل بقيم «إنسان الله»

يمكن للالتزام بقيم ونهج الله ـ التي نريد أن نؤسس عليها الإنسان في مجتمعاتنا عموماً والتي لا تستند على الإطلاق على معطيات ماضوية تريد أن تسحب تجربة الماضي للحاضر ـ أن تؤدي إلى مايلي:

أ ـ الفهم الإيجابي (المسؤول) للحياة

تسيطر النظرة الأرضية للحياة على سلوك الإنسان، وتتحكم في كل وجوده ومصيره، في تفاعله مع الواقع بأنماط سلوكية مختلفة. والواضح أن الرؤية الكونية المادية للحياة قد ساعدت على تعميق هذه النظرة في وجدان الإنسان من حيث الانسياق الأعمى وراء هذا النهج، وما يترتب عليه من انغماس في الملذات والشهوات بشكل كامل وعلى حساب القيم والمبادئ الإنسانية الرفيعة.

لكن الإنسان المؤمن بقيم الله (قيم الحرية والمسؤولية والعمل والبناء والإعمار الكوني والتطوير الحياتي المستمر والمتواصل) لا بدّ أن يتمكن من تحقيق تغيير واسع في هذه النظرة، من خلال معالجات وتصورات موضوعية مختلفة تنصب ـ بمجملها ـ على إعطاء تصور هادف وقيمة كبرى ومثل أعلى لهذه الحياة الدنيا، يدفعه ـ على الدوام ودونما تباطؤ أو انقطاع ـ إلى العمل المنتج والمبدع في كل مجالات الحياة الإنسانية على مستوى الذات والموضوع، أي على مستوى الفرد والحياة في طبيعة الحكم والنظام والتشريع والاقتصاد والعلاقات العامة والخاصة.. فالعمل عبادة، والعلم عبادة، والسعي الحثيث الصادق لخدمة الحياة والإنسان عبادة أيضاً.. إنه الربط المنطقي المتوازن بين العمل وبين الهدف.. يقول الإمام الصادقعليه السلام في معرض رده على سؤال حول العمل: «نعم، الإيمان لا يكون إلا بعمل، والعمل منه، ولا يثبت إلا بالعمل».

ب ـ تحرير إرادة الإنسان

www.noormags.ir

أي تكسير القيود المادية المفروضة على إرادة الإنسان، وتحريره من العبوديات المصطنعة التي تريد أن يتعبد الإنسان في محرابها ليلاً ونهاراً كالأصنام والطغاة والقوانين الجائرة (ومنها: انعدام تكافؤ الفرص، وعدم وجود توزيع عادل للثروات والموارد والطاقات، و..و.. الخ).

إنّ الإنسان الإلهي المنفتح على الله، والذائب في قيمه ومبادئه، يستطيع أن يتحرر من أسر عبودية الشهوة والذات والخوف والوهم ومختلف صنميات الحياة (وما أكثرها في عصرنا الحاضر)، وكل العوامل التي تعيق حركته المنطلقة نحو أهدافها ومبادئها العليا في الحياة، وذلك من خلال تعميق حس الإيمان والتقوى الذاتية والاجتماعية في النفس، وتنمية القيم والتصور الحقيقي الإيجابي الفعال للإنسان عن الحياة، والتأكيد على عنوان الدار الآخرة كهدف يسعى إليه الإنسان بعناصره ومؤشراته الموجهة توجيهاً رسالياً صحيحاً. فالدنيا مزرعة الآخرة، وجسر العبور إليها.. يقول الصادقعليه السلام في موعظة لأحد الأشخاص: «أحكم أمر دينك كما أحكم أهل الدنيا أمر دنياهم، فإنما جعلت الدنيا شاهداً يعرف بها ما غاب عنها من الآخرة، فاعرف الآخرة بها، ولا تنظر إلى الدنيا إلا باعتبار»(١٣).

ج ـ الانطلاق نحو مواقع العلم والمعرفة وبناء الذات المفكرة

وذلك بإحداث تغييرات كمية ونوعية في مجال طلب المعرفة والعلم، والتطلع في آفاق الوجود والحياة انطلاقاً من معرفة الله. وكذلك التعامل الفكري المسؤول والمتوازن مع قضية الحرية والعدالة والتسامح والانفتاح باعتبارها من القضايا الجوهرية التي تواجه الإنسان في سياق عمله وأدائه لمهمة ورسالة خلافة الله في الأرض.. يقول الإمام الصادقعليه السلام: «طلب العلم فريضة».. «اطلبوا العلم فإنه رأس الفضائل...». فالعلم يحرر الإنسان من سجون الخرافات والأساطير والأوهام، ويفك قيود الشك والشبهة والوهم من بين يديه وعقله، ويطلق فكره ووعيه في مواقع العمل والإنتاج الضرورية جداً في ساحاتنا الحالية التي نعاني فيها من أزمات وضغوط وتحديات خطرة تتمثل في ضرورة مقاومة واقع القهر والتسلط والإذلال الذي نعايشه في مجتمعاتنا العربية، وضرورة دفع كل أشكال ومواقع الهيمنة السياسية والثقافية والاقتصادية من خلال تحقيق الاكتفاء الذاتي والاقتصادي والعلمي في كل احتياجات عالمنا العربي

www.noormags.ir

الاقتصادية والعلمية والاجتماعية. وهذا الاكتفاء الذي نقصده هنا لا يعني أن ننغلق على ذاتنا وحضارتنا وندعي القيمومة الفكرية والأخلاقية على الآخرين، بل أن نتعرف ونتعارف (لتعارفوا) ونتواصل ونتداول المعرفة والعلم والتجارب والخبرات بلا حدود ولا قيود مع باقي الحضارات والأمم التي استطاعت أن تسبقنا أشواطاً غير قليلة في مجال التقنية والعلم والمعرفة والتنظيم والإدارة، فقد أصبحنا نعيش في واقع مفتوح بالمطلق ومجتمعات مفتوحة على تخوم المستحيل تقريباً، والحياة لا تعاش من منظور واحد، بل من وجهات نظر متعددة ومختلفة نستفيد فيه ونفيد.. فـ«الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق».

د ـ تنظيم الحياة الفردية والاجتماعية

يعيش الإنسان الكامل رغبة دائمة وهاجساً ملحاً يلاحقه باستمرار للخلاص من حالة الفوضى والتفكك الحاكمة في عالمنا ومجتمعاتنا من خلال سيطرة نسق من العادات والتقاليد والأعراف الهشة والضعيفة. وذلك على مستوى محاولة وضع أُسس وضوابط وأنظمة حكم جديدة ثقافية والاجتماعية واقتصادية يكتمل المجتمع ـ بموجبها ـ في شخصيته وبنيانه العام، بحيث يصبح قادراً على أداء عمله ومواجهة مختلف الظروف والأحوال التي تعيق حركة نموه، وبالتالي التحرك الفاعل لامتلاك زمام المبادرة في مجالات التنمية الفردية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية بالعمل والعلم وحسن الإدارة والإصلاح.. يقول الإمام الصادقعليه السلام: «العلم مقرون إلى العمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل عنه»(١٤).. ويقولعليه السلام: «اعمل فاحمل على رأسك واستغن عن الناس»(١٥).

ويقولعليه السلام في إصلاح المال والإدارة: «إصلاح المال من الإيمان»(١٦).

خاتمة البحث

لقد بات واجباً علينا ـ في خضم تحدياتنا وأزماتنا وانكساراتنا وهزائمنا الكثيرة– أن نبدأ العمل والحركة الفعلية البعيدة عن الشعارات الفارغة باتجاه الأُفق الاستنهاضي المطلوب بكل امتداداته في الواقع المعاصر من خلال التخطيط المرحلي المركز للفكرة والمبدأ والقيمة، لأن قيمة ما نلتزمه نظرياً، ينبغي أن يتحول الى كائن حي يتحرك في الخط العملي الإنساني، وذلك في وعيه والإيمان به، ومن ثم التزام

www.noormags.ir

مفرداته التي ترتبط في الأساس بحركية الهدف الكبير والطموح في امتداد الوجود ورحابة الحياة.

لذلك، وطالما أن الهدف هو تحقيق مشروعنا الإنساني الكبير في العمل والنهوض بواقعنا الاجتماعي والاقتصادي والسياسي فلا بدّ لنا من العمل الصادق بوعي ومسؤولية وحرية وضمن خطة مرحلية حكيمة ومتوازنة، على أن ندخل إلى عقول الناس وأفئدتهم، وأن نعيش جميعاً تجربة الواقع العملي وحسه، ونبض عصرنا وأُسلوبه، أي أن يفهم إنساننا العربي المسلم –وغير المسلم- لغة عصره وثقافة زمنه الراهن.. أن يفهم لغته ولغة الآخرين، لا أن يسقط تحت تأثير قيم عصره ويتحجم (ويتحجر) في ممارسته لقيمه.. ولكن أن يفهم عصره جيداً، أن يفهم حساسيته وذهنيته ونقاط ضعفه ونقاط قوته، حتى يكلم الناس بلغتهم بعيداً عن التصنع والمغالاة والتكلف، فالذهنية لغة والجو لغة. لذلك نقول: نحن عرب مسلمون، ومشروعنا حضاري إنساني منفتح، ولكن علينا أن نطور هذا الخطاب (المشروع ـ الخطاب) بحيث نبقي له مضمونه العملي القادر على الدخول إلى الحياة المعاصرة، ولا يبتعد عن لغة العصر وأُسلوبه ومصالحه وتعقيداته، يحاور الإنسان.. يعيش في قلب الساحة في جميع قضايا الصراع والعمل من دون أن يفقد أي شيء لا من من إسلامية إنسانه ولا من التزامه تجاه فكره وربه.. فالعمل عبادة، والانخراط في الميدان عبادة، والتزام مصالح المسلمين عبادة أيضاً.. وبديهي القول هنا أننا لا يمكن أن نخدم فكرنا وإسلامنا وإنساننا ومصالحنا من دون أن نعمل مع الآخرين ـ مجتمعات وأفراد وحضارات ـ من خلال مصالح وسياسات ولغات العصر الراهن. فحضارتنا الحالية هي حضارة التواصل والتبادل والمصالح المتبادلة والتعايش الإنساني بالرغم من سيطرة كثير من أفكار التعصب وأيديولوجيات التغلب والظلم والقهر عندنا وعند غيرنا أيضاً.

من خلال هذا المضمون، نجد أن تركيز الإسلام على ضرورة الالتزام بالنهج العقلي الحكيم والمتوازن في الفكر والعمل، إنما يحاول ضبط نزعات الإنسان وعواطفه وانفعالاته.. وهو هنا يقدم منهجاً علمياً وموضوعياً في دراسة حالات العصبية والانفعال والتشنج التي تضج بها ساحتنا العربية والإسلامية، والتي تطبع شخصية الكثير من المسلمين العاملين للإسلام في هذه الظروف، ما أدى الى أن يأخذ العمل

www.noormags.ir

نفسه هذا الطابع (الطابع الانفعالي). ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الظاهرة على مبادرات العمل والإنتاج وعلى نوعية الرؤيا للواقع والأشياء والأشخاص، فيفقد العاملون وضوح الرؤية، وتختلط الصورة الحقيقية في العيون، وترتبك الخطوات في الطريق؛ لأن الانفعال يغرق الشخصية في أجواء ضبابية، غارقة في السحر والإغراء في جانب آخر، لأنه يتعامل مع الاحساس والشعور والعاطفة، ولا يتعامل غالباً مع الفكر والعقل، الأمر الذي يجعل للسرعة دورها الكبير في ما يصدره من حكم، وفي ما يخلقه من انطباع، وفي ما يتجه إليه من غايات. وبذلك يفقد الحكم حيثياته الهادئة المتزنة، ويغيب التركيز عن الانطباع في غمار الضباب.

من هنا نجد ضرورة أن يتحرك العاملون في الخط الثقافي والاجتماعي والسياسي ليقدموا الإسلام إلى الإنسان المعاصر بوصفه خطاً فكرياً عاقلاً ومستنيراً يملك مذهباً واسعاً في السياسة والاقتصاد والاجتماع، بحيث تكون له رؤية منهجية واسعة عقلانية ودقيقة لكل الواقع الاجتماعي الذي يتخبط فيه إنساننا.. وعند ذلك لا يعود الإسلام مجرد فتاوى ضبابية متناثرة هنا وهناك، أو مجرد قيم حماسية انفعالية ليس لبعضها أدنى ارتباط ببعضها الآخر أو بالواقع، مع العلم أن الثقافة الإسلامية قادرة على أن تستجيب لتحديات العصر الراهن، وأن تخطط للمنهج العملي وترسمه، وأن تصنع جميع المعالم والعناوين التي يمكن من خلالها حل كثير من أزمات ومشاكل الإنسان الروحية والأخلاقية.

إننا نريد للإسلام والمسلمين أن يكون لهم موقع ودور إنساني كبير وحضور نوعي مؤثر في هذا العصر والعصور المستقبلية ليس بالفكر والإنشائيات الكلامية، وإنما بالعمل الميداني الواقعي الخلاق والمبدع.. ولكننا للأسف اليوم بعيدون جداً عن ذلك كله حيث نجد أمامنا أنه مهما كانت اتجاهات ومصادر المقاربات والتأويلات المقترحة للولوج إلى تلك الأهداف الكبيرة والطموحة (من خلال ما هو مقترح للنقاش منذ زمن طويل من ضرورة وأهمية نقد وتجديد الفكر الديني الإسلامي) فإنها تلتقي كلها حول نقطة وحيدة هي أن هناك شبه قطيعة عميقة بين الفكر الإسلامي والحداثة إن لم نقل، بالنسبة للبعض على الأقل، بين هذه الحداثة والدين الإسلامي نفسه. فالمسلم حائر حالياً بين الوفاء لالتزاماته الدينية من جهة أو الانخراط في

www.noormags.ir

العصر الحديث والإيفاء بالتزامات هذا الانخراط من جهة أخرى، حيث أنّ ذلك سيكلفه -كما يقولون له- رفض ذاته الحضارية وهويته الدينية.. أي أنه سيعيش حالة فصام نكد بين رفض الحداثة التي ترتكز على رفض الذات وبين هوية فاقدة لقيمتها تقود إلى الاستبعاد والتهميش. وفي هذه الحالة سيجد هذا المسلم نفسه محكوماً -مهما فعل- بالفصام وعذاب الضمير.

طبعاً هذا يقودنا فوراً إلى طرح الإشكالية بالسؤال عن إمكانية وجود أساس ديني إسلامي -في داخل بنيته العقائدية نفسها- لاستيعاب المنطق العقلي الذي تتوقف على امتلاكه نجاعة أعمال الإنسان الدنيوية. وكيف يمكن تفسير العجز التاريخي للمجتمعات العربية؟ وما هو دور معتقداتها الدينية في ذلك؟ هل إن الإسلام هو الذي يمنع المجتمعات الإسلامية من التقدم على درب الحداثة، أم إن الحداثة، على العكس، بالشكل الذي تم فيه إدخالها وتطبيقها في معظم البلاد الإسلامية، أي كحداثة آلية وتقنية لا إنسانية؟ وما هي الأسباب التي تمنع الإسلام من التجدد اليوم والانخراط في العمل ولغة المصالح الدولية إذا كان قد استطاع القيام بذلك فيما مضى؟

إنها أسئلة مصيرية وإشكالية للغاية.. ومحاولة الإجابة عنها تكتسب أهمية قصوى على مستوى ما تطرحه من مقاربات عن حالة ووضع الإسلام والمسلمين حالياً ومستقبلاً في ظل مناخات التحدي ورد التحدي الراهن.. والأمر هنا متعلق خصوصاً بتحديد دور ومكانة الإسلام في صوغ المستقبل الأخلاقي والفكري، وبالنتيجة التنظيم السياسي والاجتماعي، للمجتمعات المسلمة.. ولهذا حديث آخر..

❊ ❊ ❊

الهوامش

(١) الصدوق لتوحيد: ١٠٢ و ٢٢٨؛ الكليني، أُصول الكافي ١:١٠٠ ح١ باب النهي عن الصفة، واللفظ له.

(٢) أُصول الكفافي ٢:٢٥ ح١ باب أة الإيمان بشرك الإسلام...

(٣) وصية بالغة الأهمية نقلها بتمامها ابن شعبة الحراني من أعلام القرن الرابع في كتابه (تحف العقول)، وتحت

www.noormags.ir

أوردنا منها موضع الحاجة.

(٤) هو عبد الله بن جندب البجلي الكوفي، ثقة، جليل القدر، من أصحاب الصادق والكاظم والرضاعليهم السلام، وكان وكيلاً للإمامين الكاظم والرضاعليهما السلام، عابداً رفيع المنزلة، ولما مات قام مقامه علي بن مهزيار.

(٥) الجري: سمط طويل أملس، ليس له فلس، محرّم الأكل.

(٦) ابن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول: ٣٠٣، تحقيق علي أكبر الغفاري، ط. الثانية، مؤسسة النشر الإسلامي ١٤٠٤ هـ.

(٧) أُصول الكافي ٢/٦٣٦ ح٥ باب ما يجب من المعاشرة، تحقيق علي أكبر الغفاري، ط. الرابعة، دار الكتب الإسلامية ١٣٦٥ هـ.

(٨) الشيخ الطوسي، الأمالي: ٣٠٣ح ٥١/٦٠٤ تحقيق قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة، ط. الأُولى، نشر دار الثقافة ـ قم ١٤١٤ هـ.

(٩) المصدر السابق: ٦٧٩ ح ٢٠/١٤٤١.

(١٠) الروضة من الكافي ٣٠٢:٨ ح ٤٦٢، مصدر سابق.

(١١) أحمد بن محمد الرقي، المحاسن ٢٦٣:١ ح ٣٣٠، تحقيق السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية.

(١٢) أُصول الكافي ٦٨:٢ ح ٤ باب الخوف والرجاء، مصدر سابق.

(١٣) المحاسن ٢٩٩:٢ ح٢ من كتاب العلل، مصدر سابق؛ وانظر الروضة من الكافي ٢٤٣:٢ ح ٣٣٧.

(١٤) أُصول الكافي ٤٤:١ ح٢ باب استعمال العلم؛ الطبرسي، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار :٢٤٣، والحديث يتضمن قولاً لأمير المؤمنينعليه السلام راجعه في نهج البلاغة:٥٣٨ الحكمة ٣٦٦، تنظيم صبحي الصالحي، ط. الخامسة، دار الهجرة ١٤١٢ هـ.

(١٥) الفروع من الكافي ٥: ٧٦ ـ ٧٧ ح١٤ باب ما يجب من الاقتداء بالأئمة عليهم السلام في لتعرض للرزق.

(١٦) المصدر السابق: ٨٧ ح٣ باب إصلاح المال وتقدير المعيشة.

www.noormags.ir